

تفحص وتعليق

أسبوع الجاحظ (*)

لمندوب الرسالة

أتينا في الرسالة (١٩٥) على خلاصة ما قيل في اليوم الأول من أسبوع الجاحظ الذي قامت به كلية الآداب ، وقد كان هذا غاية ما أدركته الرسالة وهي تحت الطبع ، ونعود ففقدنا إلى قرائنا إجمال ما قيل في الأيام التي تعاقبت بعد ذلك

اليوم الثاني

كان القول في هذا اليوم للأستاذين : أمين الخولي ، وعبد الوهاب حمودة ، وكان على الأول أن يقول في منهج التفكير عند الجاحظ ، وكان على الثاني أن يقول في أسلوب الجاحظ وقد ابتدأ الأستاذ الخولي كلامه فقال : يقتضينا منهج البحث والتفكير - ونحن نتكلم عن منهج الجاحظ في التفكير أن نعرف هل كان الجاحظ يقول بالمعرفة أم كان سوفسطائياً ، لأنه كان يقول بالشيء وضده . والحق أنه كان يقول بالمعرفة ويتهجها ، وله في ذلك من الآثار كتاب المعرفة وكتاب الجوابات وغيرها من الكتب التي لم تصلنا ، إلا أن موضوعاتها تدل على أن الرجل كان من القائلين بالمعرفة . قال الأستاذ : وطريق المعرفة عند الجاحظ للحواس والعقل على اتهام للحواس واطمئنان للعقل ، ولا شك أن الجاحظ كان له في الدين والآداب والحيوان وكثير من النواحي ، وكان له في كل ناحية من هذه منهج تفكير ينتهجه ، فهل كان في كل منهج منها على حظ واحد من الاجادة ودرجة متفقة في السير ؟ إننا نرى أنه كان في كل مناهج تفكيره متكلاً أكثر منه أي شيء آخر ، فقد كان الرجل من علماء الكلام ، وكان يتخذ الكلام صناعة وتلك كانت شغنة المعتزلة فإنهم أهل جدل وكلام ومناظرة ، وقد أخذ الجاحظ منهجهم واحتذاهم ، وقد أمعن في ذلك حتى طغى منهجه الكلامي على تفكيره الأدبي . فكان يحفل بالجدل ويعني باختلافات القوم يسردها وينقدها . ثم عرض

(*) سمنا أن كلية الآداب قررت طبع هذه المحاضرات في كتاب خاص كما قررت من قبل ذلك طبع محاضراتها في المتن ، ولذلك لم نطبعها للمصحف

لمذهب الرجل في الصدق والكذب وقال : أنه كان يحتاج للشيء وضده تطبيقاً على رأيه في الصدق !!

وتكلم على منهجه في الرواية فأورد كلامه في كتاب الحيوان عن اصطناع الكتب ثم قال : ومنهج الجاحظ في ذلك مبنى على البيان والخبر ، ولكنه ينقد ما وصل إليه من الأخبار ويرده إلى اليقين العقلي كما انتقد الخطبة المنسوبة لمعاوية (١) .

وأني بعد ذلك على منهجه النظري فقال : إنه كان يحترم العقل ولكنه مع ذلك لا يرى أنه يكفي لسعادة الناس في دينهم ودنياهم ؛ ثم هو يحترم أشياء قد جاءت على غير النهج العقلي وإنما هي نظرية سماعية كخلق عيسى وحواء وغير ذلك . وكان يرى أن الشرع إنما جاء حاداً للعقل . وكان الجاحظ يشك فلسفياً ولكنه شك المتكلم بكتني بالظواهر والمظاهر لأنه يعتد بعقله ويحترمه

قال : وكان الجاحظ يأخذ بالمنهج التجريبي ولكن منهجه في ذلك كان ناقصاً ؛ ثم عرض لنظريته في المشابهة بين الإنسان والفرد ، وقارن ذلك بنظرية دارون ، ليظهر الفرق بين التجربة الناقصة والتجربة الكاملة الممحصنة . وضاق الوقت عن أن يتكلم الأستاذ في منهج الجاحظ الفني فاعتذر وقد ختم كلامه بقوله : إن منهجنا في تكريم الجاحظ منهج ناقص ، لأن آثار الرجل لم تصلنا كاملة ، فلعلنا نعمل على إخراج آثاره للناس ، فبذلك نكون قد كرّمنا الجاحظ حقاً وذكرناه واتفّعنا به

وقام من بعده الأستاذ حمودة فقال : إن أسلوب الجاحظ مرآة نفسه وحسه ، وصورة عقله ومزاجه ، وقد عرف الجاحظ في أسلوبه بخصائص لم يسبق إليها ، منها : مزج الفكاهة بالجد ، والبرهان المقتنع بالتهكم الموجه ، وسبب ذلك دماثة شكله ، فإن أهل الدماثة قوم تشيع فيهم الدعابة ؛ واستدل على ذلك بما كان من حافظ وإمام العبد ونظير وأضرابهم . ثم تنطرق إلى دعابة الجاحظ في شيء من البسط والإفاضة ثم قال : وكان الجاحظ يتخذ التهكم أسلوباً من أساليب النقد والافتقار ، ورسالة الترييع والتدوير نمط من ذلك ، وبعد أن قرأ الأستاذ فقرات من هذه الرسالة قال : وكثير من المتأدين يحسبون أن ابن زيدون هو أول من اتخذ الأسلوب التهكمي في رسالته الهزلية

(١) هذه الخطبة في البيان والبيان وقد قال الجاحظ إنها بخط الإمام علي أئب

تتاجا لروحوه وعاطفته ؛ هذا في رسائله العامة ، أما في كتاباته الخاصة فقد كان يقصد الى التتميق والتتويق ، ويحفل بالديباجة المشرقة ، ويعتمد بالشواهد والأمثال يقجها في ثنايا كلامه

اليوم الثالث

وفي اليوم الثالث تكلم الأديبان شوقي ضيف وعبد اللطيف حمزة ؛ فتكلم الأول عن الجاحظ بين النقد والبلاغة فقال : لقد كانت مكانة الجاحظ في ذلك كمكانة أرسطو في الخطابة عند اليونانيين ، وكان الجاحظ لا يكتب للخاصة فكان يعرف أن كتاباته في حاجة شديدة إلى التوايل لتقريبها لأذهان الجمهور

ثم قال : والنقد لم يبدأ كفن إلا في العصر الأموي ؛ وقد كانت الشعوية هي أول حازر على النقد لأنها كانت حركة هدامة تشك في كل شيء ، وكانت تشك في بلاغة الأدب العربي ، والشك في بلاغة الأدب العربي شك في بلاغة القرآن ؛ ثم جاءت بعد ذلك بيئة الأدباء واللغويين في المربد وغيره من أندية الثقافة فأدوا كثيراً في خدمة النقد والبلاغة ، وقد اتصل الجاحظ بكل هذه البيئات وأخذ عنهم . ونحن يصعب علينا أن نحدد ما للرجل في ذلك وأن نميز أقواله من الأقوال التي اقتبسها

ومهما يكن من شيء فالجاحظ قد فصل الأدب عن الأخلاق وروى كثيراً من الأدب العارى . وكان يطلب من الكتاب أن يتقفوا ولكنه لم يطلب من الشعراء ذلك . والحق أن الجاحظ كان فاقداً ممتازاً ، وكانت له طبيعة في ذلك ؛ وكان حر الرأي فلم يقدم القديم لقدمه ، ولم يرفض الحديث لحداثته . وكان عرياً ولكنه كان يحترم شعراء الشعوية ويقدمهم فدمح بشاراً وأبا نواس وأمثالهم . ولقد كان الجاحظ بآرائه حرياً بأن يخلق من حوله حركة أدبية حافلة لو أن النقاد تابعوه ، ولكنهم انصرفوا عن ذلك واكتفوا بنقد النصوص نقداً لفظياً نحويّاً ولغويّاً

وليس كتاب البيان والتبيين فيما أرى صدى لخطابه أرسطو^(١) وأنا لأشك في أن الجاحظ لم يره ، وما ذكره

(١) هو هنا يرد على الأستاذ حمزة ولكنه لم يحس حجة بالنقد

الى ابن عبد وس ، وإنما هو تليد الجاحظ في ذلك ، على أن فنه أشبه بالهجاء وأبعد من التهمك والسخر

ثم وازن بين الجاحظ وبين ابن المقفع فقال : إن ابن المقفع حكيم يستمد حكمته من نفسه ؛ فتجربة الدنيا هي التي كانت تملى عليه ما يكتب ، ولكن الجاحظ كان يهيج نهج من درس خطابة أرسطو فتأثر بها الى حد بعيد^(١) ، ومن المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة في الأسلوب استعماله القياس المضمر وهو ما عرف عند البديعين بالمذهب الكلامي ؛ وقد كان الجاحظ أول من قال بهذا المذهب واستخدمه وأنكر وجوده في القرآن وتابعه ابن المعتز ورد عليه ابن أبي الأصبع ... قال وإنما أخذ الجاحظ ذلك من كتاب الخطابة لأرسطو . وهناك دلالة قوية تدل على أن الجاحظ قد اتفح بكتاب الخطابة ، ولكن هناك يعترضنا سؤال وهو أن الجاحظ قد أنكر أن لليونانيين خطابة ، والجواب : أن الجاحظ حينما قال ذلك قاله وهو يرد على الشعوية الذين كانوا يقولون إن الخطابة عند كل الأمم تنقصا للعرب ، فوقف الرد هو الذي ألجأه الى ذلك الانكار . والجواب الثاني أنه لم يطلع على نصوص خطابية لليونانيين ، والثالث أنه انتقد التراجم والمترجمين لليونانية وانتقد على الخصوص ، كتاب المنطق بأنه قرأه في أسلوب سقيم مترجم^{١١}

فالجاحظ لا شك قد تأثر بكتاب الخطابة لأرسطو كثيراً ومنطقه ، وليس كتاب البيان والتبيين الا صدى لذلك الكتاب . وكان الجاحظ على طريقة أهل الخطابة يستخدم التمثيل اذا أحوجهم الدليل وأعوزته الحجة ؛ ومن ذلك ما كان في رسالته تفصيل السودان على البيضان ... ثم قال : ومن خصائص الجاحظ : قصر الفقرات والازدواج ، وتعمد السجع دون أن يتكلفه ، وكذلك الاقتنان في الأسلوب ، والتقل ، والاستطراد ، والتقصي للمعنى حتى لا يترك فيه بقية . أما الخصائص التي يشركها فيها غيره ، فالسهولة والسجع وما الى ذلك من خصائص الكتابة الشائعة في ذلك العصر .

وبعد ، فالسبب الجاحظ تتاج عقله وفكره أكثر منه

(١) تخالف الأستاذ الفاضل في هذا الرأي ونعتقد أن ابن المقفع أكثر تأثراً من الجاحظ . بالثقافة الفارسية واليونانية ، وقد كانت كل حكته أو حيلها من ذلك المعين

ابن النديم لا يفيد ذلك ، وإن كان العرب قد وقفوا على شيء من الثقافة اليونانية والجاحظ لم يكن من رجال المنطق . وقد عابه قدامة بأنه لم يذكر أقسام البيان ١١

وقد أثرت أراء الجاحظ فيمن جاء بعده ^(١) ، ولعل أهم هذه الآراء مسألة اللفظ والمعنى ، وقد أطال الجاحظ القول في هذه المسألة وهي عنده قبل كل شيء مسألة دينية لاتصالها بيلاعة القرآن . وقد أسقط الجاحظ قيمة المعنى وجعل اللفظ هو كل شيء ؛ وقال إن المعاني مطروحة في الطريق لكل الناس يلتقطها العامي وغيره . وقد قن العلماء بعد الجاحظ بهذا الرأي ووافقوه عليه . وقلنا نجد فيهم واحدا اهتم بالمعنى والبحث فيه ، بل إنهم أسقطوا المعنى ولم يروا له فضلا ^(٢) ١١

ومن بعد ذلك أخذ الأديب عبد اللطيف حمزة في الكلام عن « الجاحظ المعتزلي » فابتدأ القول في نشأة الاعتزال ، فعرض لحركة الحسن البصري في مسجد البصرة وما كان بينه وبين واصل ، ثم قال : ومضت الدولة الأموية ، وأنت من بعدها العباسية ، وجاء الفرس بمزايهم ويلايهم ، وأقول يلايهم لأنهم جاؤوا بالاحاد والزندقة ورفعوا لواء الشعوية ، ولا شك أن المعتزلة هم الذين استطاعوا أن يردوا هجمات الفرس وأن يكتبوا الشعويين لأنهم تدرعوا لذلك بالنقل والعقل والفلسفة والكلام ، فكان المعتزلة قوة كبيرة تجاه الزنادقة والملاحدة .

وبعد أن أورد الأصول للمعتزلة عند المعتزلة وشرحها وحدد العلاقة بينها وبين غيرها من الفرق قال : وكان للمعتزلة مدرستان ، واحدة في البصرة ، والاخرى بالكوفة ، وقد كان من أقطاب الاولى النظام ثم تليذه الجاحظ ، وكان المعتزلة على مقتضى تعاليمهم يتوارثون حرية الفكر ، فهم ولا شك جماعة أحرار الفكر كما يسميهم المستشرقون . وكان يطلق على كل اتباع رجل منهم اسم هذا الرجل فيقال النظامية لاتباع النظام ، والجاحظية لاتباع الجاحظ ، ولقد كان لهم بحكم مهمتهم في كل ناحية من نواحي الفكر ، فكانت حركتهم - كما يقول

(١) أنظر تجد الأستاذ قد ناقض نفسه فيما يقول إن القاد لم يتابعوا الجاحظ ناد يقول إن أراءه قد أثرت فيمن جاء بعده وهذا الرأي هو ما نراه

(٢) الظاهر أن الأستاذ قد تأثر كثيرا بما كتبه الدكتور طه في مقدمة نقد النور ، والواقع أن قضية اللفظ والمعنى كانت من القضايا التي طال فيها جدال القاد ، فاعتد بعضهم باللفظ واعتد بعضهم بالمعنى واعتد بعضهم بالالتين معاً

الأستاذ أحمد أمين - إرهاباً لحركة فلسفية منظمة توليها الكندي والفارابي وابن سينا وأشكالهم .

ولقد أخذ الجاحظ عن المعتزلة جميع مزايهم ، وكان بوقاً عظيماً لآرائهم يذيعها في الناس ويشرحها وقد ينتقدونها ، ثم أشار إلى آثاره في ذلك فقال : إن أكثر رسائله قد ضاعت في أجواء العصور الخالية ، وقد وصلنا بعض نصوص تدلنا على أن الجاحظ كسائر المعتزلة يطعن على أهل الحديث الحشويين . - وله رسالة في مدح النبي ورسالة في الاحتجاج للنبوته ، ورسائل أخرى في الرد على اليهود والنصارى والرافضة وقد كانوا أعدى أعداء المعتزلة . ثم له رسالة في فضيلة المعتزلة رد عليها ابن الراوندي برسالة سماها فضيحة المعتزلة وهي التي عني بدحضها ابن الخياط في الانتصار

ولكن مهما قيل في الجاحظ المعتزلي وأخذ به بحرية الرأي لا بد أن يكون له نظر في حرية الارادة وهي مسألة المسائل بين علماء الكلام ومبعث الخلاف بين الفرق المختلفة ، وقد كان الجاحظ كما عرفنا معتزلياً شديد الاخلاص لفرقة . وأكبر الظن أن الرجل قد وجد حلاً لهذه المسألة في نظرية الطبيعيات . والظاهر أن الجاحظ قد طبق هذه النظرية على العالم الاخرى ، وقد حمله هذا على الكلام في مسألة المعارف أو المدركات على أن مسألة الطبيعيات لم تكن من ابتداع الجاحظ ولكنه شرحها وبسطها وطبقها ، وإما هي لاستاذة النظام ؛ وقد جاءت هذه النظرية عند بعض الفرق الاخرى ، حتى نظرية العوارف التي أشرنا إليها قد انتج الجاحظ فيها نهج أرسطو ، فالظاهر التي يتجلى فيها اعتزال الجاحظ تبدو في تعصبه للمعتزلة والدفاع عن آرائهم والاشادة بفضلتهم ، وخصوصاً بفضل أستاذة النظام ، ثم في الاشياء التي عرف بها وخاصة رأيه في حرية الارادة ، وأخذ به بحرية الفكر إلى أبعد حد ، فإن الدولة كانت لاتشجع على حرية الرأي لغير المعتزلة ^(١) ، ومن ثم نعرف أن الجاحظ لم يصف كثيراً لآراء المعتزلة ، ولكنه تولاهما بالشرح والاذاعة .

(البقية في العدد القادم) م . ف . ع

(١) الذي نعرفه أن حرية الرأي كانت مكفولة لكل إنسان حتى وسعت ابن الراوندي في مبادله وصحافته ، وقد كان رجلاً متقبلاً يرتزق من الطعن في الاديان وأهل الفرق . وكان بيت مع اليهود يصيح في جانب النصارى